أوضاع اللغة العربية في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي (1830-1962)

أ.د. يحي بوعزيز

مكانة اللغة العربية في إطار الإسلام والقرآن:

كان العرب قبل ظهور الإسلام، بدوا، رحلا، رعاة، يتنقلون وراء الكلإ والماء، لأغنامهم ومواشيهم. والذي أعطى لهم الاعتبار وحولهم إلى شعب متحضر، ومتقدم، بلغ الذروة في كل ميدان ومجال، هو الإسلام، والقرءان، ولغة القرآن العربية، حضارة القرآن.

وكذلك الأمر بالنسبة للبربر الأمازيغ في بلدان الشمال الإفريقي من طنجة غربا على المحيط الأطلسي، إلى السلوم على حدود مصر الغربية شرقا. ومن البحر المتوسط شمالا، إلى الأهقار وتامنغست في الجنوب.

فقبل ظهور الإسلام كانوا يخضعون للاستعمار والاحتلال الأجنبي خمسة عشر قرنا كاملة (15). من القرن التاسع قبل ميلاد المسيح، إلى القرن السابع بعده، من طرف الفينيقيين، فالوندال، فالبيزنطيين، والذي خلصهم من ذلك الاستعمار والاحتلال الأجنبي وحولهم إلى شعب إلى شعب متحضر، بلغ الذروة في الرقي والتقدم منذ ذلك الوقت حتى اليوم. هو: الإسلام، والقرآن، ولغة القرآن، وحضارة القرآن. وأنجب علماء أجلاء أبدعوا في كل ميدان، ومجال، وفي مختلف التخصصات العلمية والفكرية والحضارية، وتجاوزت سمعتهم ومكانتهم، بلدان المغرب الإسلامي وكل بلدان القارة الإفريقية، إلى الأندلس غربا، وفرغانة بآسيا الوسطى والشرقية شرقا، وإلى أوربا شمالا.

وكانت العقيدة الإسلامية، واللغة العربية، والقرآن، وحضارة القرآن، هي الإسمنت الذي جمع شتات كل قبائل وأعراش البربر الأمازيغ، ووحدهم على مدى أربعة عشر قرنا من التاريخ، وجعلهم شعبا موحدا ومنسجما، وقويا، ومبدعا كذلك. ولابد هنا من التذكير لمن نسي أو تناسى، بأن البربر الأمازيغ من أصول

عربية هاجروا من اليمن في جنوب شبه جزيرة العرب، إلى بلدان الشمال الإفريقي منذ عصور التاريخ القديمة. ولذلك فإنه بمجرد وصول الإسلام والعقيدة الإسلامية إلى بلدان الشمال الإفريقي على أيدي العرب المسلمين الفاتحين، خلال القرنيين: الأول الهجري، والسابع الميلادي، آمن بهما البربر الأمازيغ بسرعة، واندمجوا مع أبناء عمومتهم العرب الفاتحين المسلمين بكل سهولة ويسر فاعتنقوا الإسلام عن طواعية واقتناع، وتعلموا العربية، التي أصبحت منذ ذلك الوقت لغتهم التي يتعاملون بها، ويبدعون في كل ميدان ومجال، حضاري، وتحولت اللهجات البربرية إلى لهجات محلية فقط للتعامل المحلي كما هي اليوم، وأصبحت اللغة العربية هي لسان الجميع، ولغة الجميع دينيا، وعلميا، وفكريا، وحضاريا أبدعوا بها في كل مجالات الحضارة على مدى أربعة عشر قرنا من التاريخ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فماذا فعله الاستعمار الفرنسي (1830-1954)

وعندما ابتليت الجزائر والشعب الجزائري بالاستعمار والاحتلال الفرنسي الأوروبي المسيحي النصراني، الصليبي الحاقد، ابتداء من عام 1830، سعى هذا الاستعمار الماكر، والخبيث أول سعى، للقضاء على الإسلام كعقيدة دينية، والعربية كلغة للشعب الجزائري، وإحلال المسيحية، والفرنسية محلهما وبدلهما، وبذل كل ما يستطيع، وسخر كل إمكاناته المادية، ووسائله، لتحقيق ذلك، فهدم المساجد وبنى الكنائس، وحارب اللغة العربية، وسعى لنشر الفرنسية بدلها.

وفي هذا الإطار أهان الاستعمار الفرنسي الإسلام والعقيدة الإسلامية بأشكال ووسائل متنوعة. فهدم أغلب المساجد، وحول الكثير منها إلى كنائس واصطبلات، ومتاجر، ومستوصفات، وبذل كل ما في وسعه لنشر المسيحية النصرانية، ومنح لليهود الصهاينة الجنسية الفرنسية بصفة جماعية عام 1870 حتى يرفع أعداد العنصر الفرنسي الأوروبي المسيحي، ويغلبه على العنصر الجزائري المسلم.

وحارب اللغة العربية، واعتبرها لغة أجنبية في بلادها ووطنها، بواسطة قرارات جائرة، أصدرتها إدارته الاستعمارية، ومنع تدريسها في المدارس والمعاهد، وحارب حامليها من العلماء، والفقهاء، والمعلمين والأساتذة، والشيوخ، ووضع حواجز وعوائق كبرى أمامها، وأمامهم، وبالمقابل لم يسمح للجزائريين بتعلم لغته الفرنسية حتى يبقيهم جهلاء أميين، ويمنعهم من التقدم والتطور إلى الأمام. وكان من ضمن أهدافه الأساسية الخسيسة، والخبيثة واللئيمة، تحقيق فصل الجزائر والشعب الجزائري فصلا تاما عن بلدان وشعوب المغرب الإسلامي والشعوب العربية الإسلامية في المشرق، التي يرتبط معها بأواصر القربى، والدين، واللغة، والفكر، والتاريخ، والحضارة.؟

وما هو رد فعل الشعب الجزائري

ولم يقف الشعب الجزائري مكتوف الأيدي في هذا الميدان، ولم يتوان عن المعارضة، والمقاومة، بكل الوسائل، والسبل، والأشكال، والأساليب، المختلفة، فأعلن تمسكه الشديد بهويته الوطنية الدينية، واللغوية، والحضارية، العربية الإسلامية، وقاوم وحارب سياسة الفرنسة سياسة والتنصير والتمسيح، وتمسك بدينه الإسلامي الحنيف، وحماه ودافع عليه، وتمسك بلغته العربية، لغة الإسلام والقرآن وحضارة القرآن. فبنى المساجد والمدارس، والكتاتيب، القرآنية، والمعمرات. وشجع تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم اللغة العربية، وعلومها، ومعارفها المختلفة الراقية، للأجيال الجزائرية الصاعدة، المؤمنة والمسلمة: وذلك بشكل مكثف وبحماس متقطع النظير، وأرسل الكثير منهم إلى معاهد القرويين، والزيتونة، والأزهر، للتعلم، والتثقيف بالعربية وعلومها ومعارفها المختلفة ورفض بإضرار، كل محاولات الاستعمار من أجل تنصيره، وتمسيحه عقائديا، وفرنسته لغويا وفكريا، وحضاريا، وأبدى من الشجاعة والبطولة في هذا الميدان ما لا نظير له لدى غيره من الشعوب التي ابتليت مثله بالاستعمار الأوربي المسيحي النصراني. وهو ما أدهش السلطات الاستعمارية الفرنسية نفسها وأربكها، وأفشلها في النهاية على أي حال.

ففي القرن التاسع عشر اهتم الشعب الجزائري بإنشاء وتأسيس دور العلم والمعرفة من مدارس، ومعاهد، ومساجد جامعة، وزوايا، وتطوع المعلمون، والمدرسون، والعلماء، والفقهاء، والأئمة، والشيوخ، للتعليم، والتثقيف، للأجيال الجزائرية الصاعدة، بشكل مكثف وبحماس كبير، ومتواصل، للعربية، وعلومها ومعارفها المختلفة في هذه المؤسسات التربوية، وفشلت كل محاولات الاستعمار في إفشال ذلك، وإنجاح عمليات التماسيح والنصير والفرنسة، رغم كل ما استعمله من إمكانات ومثبطات وعوائق كثيرة، وقاسية ورهيبة.

وفي القرن العشرين، تطور هذا التعليم العربي، وتقدم، وتوسع أكثر، بعد الحرب العالمية الأولى، وخاصة عندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931 بقيادة الشيوخ: عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، والعربي التبسي، والعقبي، وغيرهم، الذين حددوا سياستها، ومشاريعها، في التربية والتعليم، ونشرهما بين الأجيال الجزائرية الصاعدة، وحماية هوية الشعب الجزائري الوطنية الدينية، واللغوية، والثقافية، والحضارية، وأسسوا مئات المدارس، وحشدوا إليها آلاف التلاميذ والطلاب، للتعلم والدراسة، وكونوا مئات المعلمين لممارسة التعليم والتدريس. وتطور هذا الجهد، وتوسع، وعم كل أطراف البلاد ما بين الحربين العالميتين، وإلى غاية اندلاع ثورة أول نوفمبر 1954، فاستعادت العربية مكانتها

رغم أنف الاستعمار خاصة بعد أن كثر إرسال البعثات الطلابية الجزائرية إلى الزيتونة والأزهر، والقرويين، وكل المعاهد، والجامعات العربية، في مصر وبلاد الشام، والعراق.

الإنجازات الكبرى لجمعية العلماء:

ويكفى فخرا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إنشاؤها لمدارس التربية والتعليم في كل أنحاء الجزائر ومعهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة واستقطابها لآلاف التلاميذ والطلاب الجزائريين وترسيخ العقيدة الإسلامية واللغة العربية ومعارفها المختلفة والراقية في نفوس كل الجزائريين دون استثناء، والمحافظة على الإسلام ومبادئه كعقيدة دينية للشعب الجزائري على مدى أربعة عشر قرنا من التاريخ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما عليها، وذلك بشكل إيجابي فعال يدركه الجميع، وما تزال آثاره حتى اليوم في مطلع الألفية الثالثة.

كما يكفى فخرا لجمعية العلماء شعارها الخالد:

" الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا "

والأبيات الشعرية التالية للشيخ عبد الحميد بن باديس:

شعب الجزائر مسلم   وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله   أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا لـه   رام المحال من الطلب
يا نشئ أنت رجاؤنا   وبك الصباح قد اقترب

إن دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في محاربة سياسة الفرنسية والتنصير والتمسح، والدفاع عن الإسلام والقرآن، ونشر التعليم العربي باللغة العربية الوطنية، بشكل مكثف، ليس له مثيل في الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين، وحقق نتائج مهمة، ورائعة، وباهرة، أهمها إبراز الوجه العربي الإسلامي للجزائر والشعب الجزائري، بشكل كبير ورائع، أفشل كل محاولات الاستعمار، وأذنابه، وغرس الهوية الوطنية الجزائرية، العربية الإسلامية في أعماق كل الجزائريين دون استثناء مما ساعد مجاهدي ثورة أول نوفمبر 1954 على تبنى فكرة الجهاد والاستشهاد، وافتتاح المعارك باسم الجلالة! "الله أكبر " التي ساعدتهم على الفوز بالنجاح وطرد الاستعمار شر طردة عام 1962 م وإلى الأبد.

دور الأحزاب السياسة والطرق الصوفية

وحتى الأحزاب السياسية الجزائرية شاركت في مقاومة سياسة الفرنسة والتنصير والتمسيح، خاصة التيار الاستقلالي بدءا بحزب نجم شمال أفريقيا، عام 1926، ومرورا بحزب الشعب الجزائري عام 1937، وحزب حركة الانتصار عام 1946 إلى عام 1954م. لقد حارب التيار الاستقلالي فكرة وسياسة الفرنسة

والتنصير والتمسيح، والإدماج، وقاومها، وطالب صراحة وبكل وضوح باستقلال الجزائر والشعب الجزائري في إطار هويته الوطنية الدينية واللغوية والحضارية المتمثلة في الإسلام عقيدة، والعربية لغة وحضارة. وكذلك الأمر بالنسبة لشيوخ الطرق والزوايا الدينية الصوفية فإنهم كافحوا وناضلوا فيما يخص تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم اللغة العربية، والعلوم والمعارف الدينية، واللغوية، والفقهية والتشريعية، وسخروا كل إمكاناتهم من أجل ترسيخ اللغة العربية لغة القرآن وحضارة القرآن، في أوساط الشعب الجزائري وأجياله الصاعدة، بكل ما كان لديهم من إمكانات حتى ولو لم تتوفر لديهم الطرق والمناهج البيداغوجية المطلوبة.

هكذا يتضح أن الشعب الجزائري خلال عهد الاحتلال الفرنسي، تمسك غاية التمسك بدينه الإسلامي، ولغته العربية، بشكل فعال وإيجابي، وأفشل كل محاولات الاستعمار من أجل تمسيحه عقائديا، وتنصيره وفرنسته لغويا، وثبت كالطود الشامخ أمامها وأفشلها وقضى على الاستعمار والاحتلال من اصله في النهاية وانتهى إلى الخاتمة الحسنة خلال ثورة أول نوفمبر الكبرى عام 1954–1962م. وأثبت للعالم أجمع أنه شعب أصيل لا تنال منه مثل هذه النكبات والمؤامرات، والضربات الاستعمارية مهما كانت قاسية وجارحة وخطيرة.

وبسبب هذه المقاومة، وهذا الصمود، والنجاح، في حماية هوية الشعب الجزائرية الدينية واللغوية، لم تجد الدولة الجزائرية العائدة عام 1962، صعوبة كبيرة في وضع المنظومة التربوية الوطنية الجزائرية العربية الإسلامية، لأن الشعب الجزائري كان مهيئا غاية التهيئ لذلك، ولإبراز هويته الوطنية الدينية، واللغوية، والحضارية فنص، دستورها على أن دين الشعب الجزائري هو الإسلام، وأن لغته الوطنية هي العربية، لغة القرآن وحضارة القرآن، فعادت الأمور إلى نصابها، وإلى ما كانت عليه قبل عام 1830. وتلك هي عظمة هذا الشعب الجزائري المكافح والمناضل، والمجاهد، والحمد لله والشكر له أولا، وللشهداء والمجاهدين، والمناضلين ثانيا، والحمد لله والشكر له كذلك على حسن هذه الخاتمة الحسنة والسلام.